

في العاطفة القومية

محجوب بن ميلاد

سأبحث في هذا المقال في امر العاطفة القومية وفي امر تركيتها في الدول الجديدة التي كافت - مرّ الكفاح احياناً - قبل ان تسترجع مقاليد امورها وحرية الانفاس .

ولست تبالغ في شيء ان انت أكدت ان تركية العاطفة القومية - كتركية اختها الدينية - جزء هام من تركية العقول او بنائها، وتتطلب من الراغب في العطف عليها نظرة فلسفية اصيلة تشمل جميع جوانب الحياة البشرية على الاطلاق . وان انت أكدت ان تركية العاطفة القومية او بناءها جزء هام من تركية العقول او بنائها ، فالمهم ان تنتبه لضرورة تحديد مكانة هذا الجزء من الكل ، او لضرورة تحديد النسبة التي بين هذا الجزء وهذا الكل .

وبدهي ان العدل يقضي بأن تعطي ذلك الجزء حقه كاملاً لا منقوصاً ولا مزيداً فيه . فلا غيرتك على الكل تحملك على الاجحاف بالجزء ، ولا غيرتك على الجزء تنتهي بك الى الجور على الكل . وان انت تجاوزت البداة ولم تقنع بها أكدت لك ان سلامة العقول لا تتم الا بزكاة العاطفة القومية ، مثلما ان سلامة العاطفة القومية لا تتم الا بزكاة العقول ، نظراً لما بين الجزء والكل من الانسجام المكين . وطغيان العاطفة القومية على العقول تجنيس لها وتجنيس للعقول . وانتفاؤها من العقول انتحار لها ومسخ للعقول . فالضدّان هنا يجتمعان بأوثق ما يكون الجمع ، من حيث ان الافراط والتفريط كليهما ذميان .

فما قولك مثلاً في السمفونية العبقرية لو طغت عليها ، دفعة واحدة ، آلة من آلاتها لحياها عن دورها الحقيقي في نطاق السمفونية ؟ او ما قولك في السمفونية لو خانتها اثناء العزف بغض آلاتها الجوهرية فلم تسمع رناتها الى جنب رنات اخواتها ولم تنسجم معها على نحو ما كان مقدراً ان تنسجم معها في نطاق العزف الشامل ؟

فالعاطفة القومية ، في عرف اصطلاح علماء النفس المحدثين ، من العواطف المركبة . معنى ذلك انها مزيج سحري من المشاعر : بناؤها صعب عزيز المثال ، وفي حاجة الى هندسة دقيقة الاسرار والاصول ، نادرة الوجود . ويجب عليك ان تخوض من القضايا الشاملة غماراً وغماراً قبل ان تهتدي الى الكشف عن اسرارها واصولها الجوهرية . فهذه أصول نفسية او عقلية ، وهذه اصول خلقية ، وهذه اجتماعية ، وهذه تاريخية ، وسياسية ، ومذهبية ، وثقافية ، وحضارية ، وانسانية على الاطلاق . وان انت اهتديت الى جميع تلك الاصول كان لا بدّ لك من الالتجاء الى كل الوسائل والمناهج التربوية والفنية الدقيقة حتى تراعى في الاسرة وفي المدرسة وفي المجتمع ، ان انت رمت بناء عاطفة قومية صادقة نيرة .

والذي يجب ان تنتبه اليه هو انك لن تنتهي الى تزكية العاطفة القومية او الى بنائها فتكون على ما ترغب فيه لها من الحرارة والصدق والنور ، ما لم تغذّ النفوس التي تريدها مضطربة بضرامها بما يجب ان تغذّي به من معارف معينة وحقائق معينة وفنون معينة ، فتنشأ على ما يجب ان تنشأ عليه من القابلية للاهتزاز القوي المنغم العادل امام كل ما يجب ان تهتز له النفوس الحرة الشاعرة بجسام مسؤوليات الحرية على الاطلاق .

العاطفة القومية ليست مجرد الاحساس بالانتماء الى قوم او مجرد الغيرة على اولئك القوم او على شؤونهم . فهذا الى العصبية القبلية اقرب منه الى العاطفة القومية النيرة . بدليل تشعب البحوث في حقها باجواء الفكر الغربي : فهذا يجعل المرجع في شؤونها الى اساس الجنس ، وهذا الى اساس اللغة ، وهذا اساس الدين ، وهذا الى اساس وحدة المصالح ، وهذا الى اساس وحدة العوامل والحدود الجغرافية ، وهذا الى اساس وحدة المصير والى ما تشمله وحدة المصير ، من وحدة الآلام والحن ووحدة في الانتصارات والامجاد ووحدة في الاشواق والمثل ووحدة في الرغبة في العيش في كنف تلك المثل .

ففي الرحاب الفسيحة الارجاء ، التي هي رحاب العاطفة القومية النيرة المتفتحة ، تنسجم ابداع الانسجام جميع العواطف التي نسميها عواطف الحرية : فمن شعور باستقلال الذات ، الى شعور بحرمة الذات وبخصائصها الجوهرية ، الى شعور بضرورة الدفاع عن الذات ، الى شعور بضرورة تزكية الذات في نطاق الصدق وصفاء النظرة والحرص على الغرائم العظيمة والمشاريع الاخلاقية ، الى شعور عارم مكين بالتضامن العجيب الذي يربط

بين الفرد المستقل والطبيعة والكون بأسره .

وأدق الصعوبات التي يرتطم فيها الراغب في تركية العاطفة القومية انما هي صعوبة الاهتمام الى الطريقة الكفيلة بأن تحمل الفرد الشاعر باستقلاله الفردي ، او المتوهم الاستقلال والميال جبلة الى الانطواء في حدود ذاته الفردية وحدود انانيته الضيقة ، على الكشف عما يربط بالفعل والحقيقة بينه وبين الكائنات على اختلافها من ضروب التضامن . فالعاطفة القومية لا تقوى ولا تستقر في ذاته ولا تزكى ولا تستنير الا اذا ما فزت باخراج الفرد من مستواه الحيواني الطبيعي ، فحملته على ان يعرج الى مستوى البشرية العاقلة الرافة اخلاصاً للمثل العليا البشرية . وليس يمكن ان تفوز بهذا الا اذا ما فاز هو بالكشف عن تلك الروابط ، والشعور بحقيقتها ، والشعور بان ذاته لا تزداد الا قوة ونمواً وتفتحاً وسعة ارجاء كلما تحررت من الانانية الحيوانية الضيقة الأفق واتسعت اجواؤها شيئاً فشيئاً الى ان اصبحت تسع الكون بأسره .

ولو انك اردت ان ترمز لتفتح ذاته لما كان في امكانك ان تجد رمزاً اصدق ولا ابين من دوائر داخل بعضها ذات مركز واحد . فكل فرد يشعر بأنه المركز الذي يجب ان تضاف اليه كل الاشياء في حالة انانيته الاولى . فهو سجين الانانية ، وتحريره لا يتم الا تدريجياً وباكتشافه شيئاً فشيئاً ما يربط بينه وبين الكائنات من مختلف الروابط ، روابط التضامن الشامل للبشرية كافة بين امسها وغدها : فهذا تضامن الافراد داخل الاسرة ، وهذا تضامن الافراد داخل المهنة ، وهذا تضامن الافراد وتضامن الاجيال داخل المجتمع القومي ، وهذا تضامن الافراد والشعوب داخل البشرية جمعاء في زحفها الدائب المتصل نحو مزيد من القوة ومزيد من الاقتدار ومزيد من سعة الافق ومزيد من النور .

والفرد الذي ينتهي الى مثل هذه القمم من التفتح العجيب للعالم بأسره ، يصبح أشد شعوراً بالروابط الخفية العنكبوتية التي تربط بينه وبين الكائنات بأسرها في نطاق تلك الدوائر التي فتح معانيها وقيمها ، الدائرة بعد الدائرة . مثلما يصبح اشد شعوراً بذات الكنز الخفي الذي هو كنز ذاته الحية ، فتنفجر شآبيب جودها الاصيل سواء اكانت من شآبيب الجمال او من شآبيب الخير او من شآبيب الحق . وليس يمكن ان تجد في التاريخ بطلاً من الابطال ، ولا حكيماً من الحكماء ، ولا قديساً من القديسين ، ولا مواطناً صالحاً من المواطنين الصالحين ، الا كان نطماً فريداً ممتازاً في نطاق اسلوب هو اسلوبه ، من ذلك

الفرد المتطور هذا التطور الناموسي الكامل .

وأخصّ خصائص تلك النماذج الفريدة من البشرية الممتازة انما هي في كون العاطفة القومية سمت لديهم الى أعلى درجاتها فاستحال نسيجها الى حرير هو انفس حرير . ناهيك انه انتهى الى التوفيق العجيب بين مقتضيات الذات الفردية ومقتضيات الذات الجماعية او القومية ومقتضيات البشرية على الاطلاق . فكان آية ساطعة من آيات الخلق الرباني : اشعاعها هو الاشعاع ومفعول قولها او فعلها او انجازها مهما يكن جنسه هو السحر الخلاق الذي يلهب النفوس ، فيدعوها الدعوة الملحة الى انتهاز سبل التفاني وراء تحقيق انبل المثل ، فتكسر بفضل ذلك سدوداً وتفتح للبشرية آفاقاً جديدة .

ولعل كتاب طاغور « الدار والعالم » اروع آية فنية كتبت في عالمنا المعاصر في ذات المشكل الجوهرى الذي هو مشكل العاطفة القومية في انجذابها ابدأ الى قطبين متناقضين في الظاهر : هما قطب الانحصار في الذات القومية الضيقة الدار ، وقطب التفتح الى افصح ارجاء البشرية الشاملة : العالم . وانك لتخطىء فهم الكتاب ان انت ظننت انه يجب علينا في نطاق العاطفة القومية ان نختار بين هذين القطبين : فحيوية العاطفة القومية الخلاقة هي في توترها الحي الاليم - توتر وتر القوس المشدود - بين ذين القطبين كليهما : لا هذا يذهلها عن ذاك ولا ذاك يذهلها عن هذا . والمهم ان تنتبه الى ان حياد العاطفة القومية الحق عن صارم سنن ذلك التوتر الحي لسبب من الاسباب من شأنه ان يجعل تلك العاطفة عرضة لشتى الامراض والانحرافات التي تتأخم الامراض العقلية . وليس يمكن ان تنتشر في مجتمع ما تلك الانحرافات التي تنخر العاطفة القومية من دون ان تعرضه لضروب من الاخطار : اركانه تتصدع ، ولحمته تتفتت ، وقيمه ومعانيه تنطمس معالمها او يعروها الكسوف الجزئي او الكلي ، ويصبح المجتمع يترصده افلاس الحقيقة مثلاً يترصده الغزو والحق .

ولما كانت القضية التي نحن بصددنا على هذا الجانب العظيم من الخطورة بالنسبة للأفراد وبالنسبة للجماعات في الحين ذاته ، وجب ان نشير الى الضربين المتقابلين اللذين يقضيان على التوتر الحي الذي هو توتر العاطفة القومية الحق ، فيكونان سبب مسخها او نضوبها او تلاشيها . ويتجسم هذان الضربان في جود العاطفة على « قطب الدار » او جمودها على « قطب العالم » ، على حد اصطلاح طاغور .

فجمود العاطفة القومية على « قطب الدار » يُنضب معيها او يجنّسها ابشع تجنيس ، فتستحيل عصبية ظلامية من جذس العصبية القبلية الجاهلية ، فتضحى جبرية قهارة تختنق في جوها النفوس او تتعفن ، فتتهوي من عليائها الانسانية الى حضيض الغريزة ونزواتها واهوائها وفقرها المدقع . مثل هذه العصبية القومية عجزها هو العجز في ميادين الخير ، وصولتها هي الصولة في ميادين الهدم والشر ، وهي العقم المريع .

اما جهود العاطفة القومية على « قطب العالم » بدعوى التفتح لأوسع الارحاء فهو انخلاع عن شروط الذات وعن خصائص الذات ، وهو كفر بنواميس الحياة . ذلك انه مطلق الذهول عما يمكن ان نسميه « مبدأ التقمّص » . فلئن كان الروح لا بد من ان يتقمص في بدن ، فكذلك الفرد - جسماً وروحاً - لا بد ان يتقمص في حقيقة جماعية منها يستمد الغذاء وبعض الخصائص . فلا عجب اذاً ان ترى جهود العاطفة على « قطب العالم » لا يعم ان يفقدها عصب الحياة ، فتستحيل احلاماً وخيالات واوهاماً متبخرة وعجزاً وفراراً من كل المسؤوليات .

وان انت وقفت امام هذين الاصلين الجوهريين ، اللذين هما اصل كل انحراف او مرض يعرف العاطفة القومية بالدول الجديدة ، فتنبعت فروعها العديدة ومظاهرها المتنوعة وعواقبها التي لا تحصى عدّاً ، ادركت ان ما تشكوه الدول الجديدة من مختلف الادواء في الميدان القومي وفي مستوى العاطفة القومية ليس ناجماً الا عن ذينك الاصلين . فما اكثر ما تطالعك العاطفة القومية من وراء اقنعة الديماغوجيا وظلمة العصبية الجارفة التي لا تعرف لسنن الواقع معنى او وزناً لفقدانها الحاسة التي تسمى بحاسة البصر بشؤون الواقع . وما اكثر ما تجد الى جنب ذلك الانتهازيين او الوصوليين على اختلاف كتائبهم يستغلون القومية ويتطفلون عليها ، ولا رغبة لهم من وراء ذلك الا اشباع مطامعهم الفردية الاشعبية ونزوات الانانية الجاححة . وما اكثر ما تجد الى جنب هذا وذاك الفاقدين كل احساس قومي صحيح او غير صحيح ، فتراهم منطوين على ذواتهم ، متهاونين بكل واجب وكل مسؤولية .

ولا تسل على الاغلبية الساحقة ممن تراهم اقرب الى الحياة الغريزية الحيوانية منهم الى الحياة البشرية ، لكونهم فريسة المرض والعري والفقر المدقع والعادات والتقاليد والانحرافات التي لا توصف لتحديثها كل وصف . وان انت ابيت الا ان تجد لهم نعتاً او وصفاً ، فلست واجداً عبارة اصدق من قولك عنهم انهم « اهل الكهف » : ناموا دهوراً في كهفهم

في معزله مطلق عن تطورات الدنيا ، ثم ابت صروف الزمان الا ان تجرفهم الى عهدنا هذا - على حالهم القديمة - فلا هم من هذا العهد ولا هذا العهد منهم . هم « الهباء من الافراد » : فلا هم يحسون بان ذواتهم تتجاوز ذواتهم الى ذات جماعية شاملة ، ولا الذات الجماعية الشاملة تتمتع بوحدتها العضوية من حيث هي ذات جماعية شاملة . شأن ذلك « الهباء » المنشور شأن بعض الجزر المشتتة هنا او هناك بالحيط ، في شهادتها على انها كانت جزءاً من قارة مترامية الاطراف وزلزلت زلزالها فغمرت مياه المحيط !

وان انت حصرت النظر في الاقطار العربية دون بقية الاقطار المتخلفة وجب عليك ان تذكر اي انحطاط عقلي ومادي كان انحطاطها في القرون الاخيرة . فتجراً عليها الغزاة من كل جانب ، واضحت مستعمرات للمستعمرين على اختلافهم . وبقي شأنها هذا الشأن عقوداً متوالية تجاوزت عقود القرن بالنسبة لبعضها . ولم تسترجع مقاليد امورها الا بفضل كفاح مرير اضطلع باعباءه المرهقة قلة من الافراد ممن حظوا في نطاق احتكاكهم بالغرب والغربيين بالعروج الى مستوى العقول المبينة بحكم البناء . فهؤلاء امكن لهم تنظيم صفوف الجماهير في نطاق ما لم تعرفه من قبل من عمل جماعي منظم صبور ذي اهداف معينة مرسومة ، وامكن لهم ان يضطلعوا بأعباء ضروب من الكفاح الصامد وراء المطالبة بحقوق الذات وشرف الذات واستقلال الذات ، في نطاق فلسفة واعية بأهدافها ومبادئها وطرقها الناجعة في الكفاح . وانما امكن لهم ذلك لأنهم كانوا الضمائر الحية التي تعرف المسؤولية البشرية ووزنها وعظمتها وبرها ، وتذكر معاني الجهد والصبر على المكاره ، ولا تتردد في خوض اقصى المغامرات والتضحيات لعجزها عن كل شيء الا عن القيام بمهرق الواجبات !

أليس معنى هذا ان اصحاب تلك الضمائر الحية الذين لم يتقيدوا الا بقيود مقتضيات الضمائر الحية يجب عليهم اليوم بعد ان خرجوا مظفرين من معركة الاستقلال ان يخوضوا معارك اخرى هي المقصودة بالذات من وراء كفاحهم الاول ؟ وهي معارك الرهان فيها من باب الخلق ، ناهيك انها ترمي الى اعادة الروح السليب الى مجتمعاتها المهشمة من جميع النواحي المادية والخلقية والروحية .

وهنا تدرك خطورة هذه القضية : كيف تركسى العاطفة القومية او الروح القومي حتى يمكن لكل فرد ان يشارك مشاركة الضمير الحي في حياة المجتمع الجديد ، فتطرد وظائفه

على اختلافها في نطاق ما يتطلبه العصر الذري من عزة الذات وضمان البقاء في نطاق عزة الذات . واصحاب الضمائر الجديدة في الدول الجديدة يدركون ان هذه المعارك الجديدة التي يجب عليهم خوضها ، معارك حياة او موت بالضبط والتمام !

ولما كانت القضية مترامية الاطراف ، فلا بد من حصرها في بعض النقاط الجوهرية التي نعتبرها الشروط الاساسية لنجوم عاطفة قومية سالمة شاملة في الدول الجديدة .

النقطة الاولى : الشعور الحاد العنيف من قبل القادة المسؤولين بأنهم ماتقلدوا مقاليد الامور الا ليقبلوا على عملية جراحية هائلة ، مرهفة لهم ارهاقها للمجتمع العليل الواجبة معالجته ، وتطلب منهم من الصدق ومن الحزم ومن الخبرة الدقيقة بالمسائل اشكالا والوانا . وهي عملية معقدة ما امكن التعقيد ، ومشحونة بالقضايا والمعطيات المتناقضة ، ويحف بها من الانفخاخ والاختطار صنوف لا تحصى عداً . وهي عملية ترمي ، اولاً ، الى ترميم المجتمع من جميع النواحي المادية ، الفلاحية والصناعية والفنية والتجارية والمالية ، - حتى يمكن استغلال جميع الثروات الطبيعية وتحسين نظام المعيشة للعباد في نطاق القدر الادنى الذي يتفق والعدالة الاجتماعية والحرمة البشرية . وترمي ، ثانياً ، الى ترميم النفوس القديمة ، حتى يمكن لها الانسجام بعض الشيء مع مقتضيات العهد الجديد . وترمي ، ثالثاً وبالخصوص ، الى بناء نفوس النشء الجديد جديد البناء ، حتى يمكن استغلال الثروات الانسانية استغلالنا الثروات المادية ، اعني الى اقصى الحدود .

النقطة الثانية : الشعور الحاد العنيف من قبل القادة المسؤولين بان امكانيات المجتمع الجديد محدودة من الناحية المادية ، اعني المالية والفنية ، ومن الناحية الانسانية ، اعني من حيث عدد النخبة العصرية من ابناء المجتمع الجديد ممن حظوا بثقافة عصرية تمكنهم من الاضطلاع بالمهام الجديدة في سبل ترميم المجتمع من الناحية المادية اولاً ، ومن ناحية ترميم النفوس القديمة ثانياً ، ومن ناحية بناء العقول الجديدة ثالثاً . وهو شعور ثمرته ضرورة استغلال جميع الامكانيات الموجودة في نطاق الاقتصاد الحكيم وضرورة اجتناب كل تبذير . ثمرته بالخصوص ضرورة معرفة ما يجب تقديم معرفته من الامور على غيره للفوز بأنجع النتائج في اقصر الآمال . وفي هذا من المتناقضات اشكال ، سيما واذا ما اعتبرت

وزن الاهداف المادية او الادبية المطلوبة لما بين وزن القيم ووزن الشؤون المادية من التغيرات المدهش .

النقطة الثالثة : الشعور الحاد العنيف من قبل القادة المسؤولين بضرورة تصفية حساب التراث العقلي الجماعي ، وخاصة في الميدان الديني ، لانقاذه مما تراكم عليه من شتى الاوهام الظلامية اثناء عصور الانحطاط ، حتى يمكن الربط الوثيق بين الماضي الحي ومقتضيات العقلية العصرية ، لقطع دابر كل ديماغوجيا وتوفير اسباب الاخلاص الحي للذات الحية المحدودة ، واستئناف السير في نطاق وحدة الذات التاريخية لا في نطاق ما يعروها من ضروب التصدع . فالبناء بناء الوحدة ليس بالامر السهل في نطاق ما ورثناه عن عهود افلاس الحقيقة وعن عهود الاستعمار من شتى الرسوم الدارسة والانقراض والاضاع المادية والعقلية النخرة . أليس يجب ان نقضي فترة من الزمن يمكن ان نسميها فترة معالجة الادواء على اختلافها وتضميد الجروح وتعزيز اركان الذات على اختلافها ؟

ومما يدل على خطورة القضية ، وعلى خطورة العقلية غير الواقعية التي تعالجها في غير ما انتباه لمتجدد الخيبات وفي غير ما اقامة وزن لكل الصعوبات الناجمة في الطريق ، انك لا تتعرض لذلك بالتلويح او بالتحليل من دون ان تلصق بك شتى التهم ! وما درى المتهمون ان الدول العصرية ليست مجرد القبائل ذات النظام القبلي البسيط ، وانما هي تنهض على اجهزة فنية ومادية وعقلية وانسانية من اعز طراز ، وان بناءها مما يتطلب عقوداً من الجهود الفنية المتواصلة ممن بقوا دهوراً - وما زالوا - على اشبع احوال الانحطاط العقلي والمادي : وهل شأننا غير هذا الشأن ؟

النقطة الرابعة : ان انقلاباً عقلياً على هذا الجانب العظيم من الخطورة رهانه اجلّ رهان : حياة او موت بالنسبة للملايين من البشر كافحوا تحت قيادة ابطالهم البررة جهم الكفاح لكسر ما كان يخنقهم من الجبرية القاهرة ، جبرية الحكم الاجنبي ، فابلوا في ذلك البلاء الحسن المظفر . أفلا يجب على ابطالهم البررة ان يقودوهم الآن لخوض غمار كفاح جديد انقل وطأة في سبيل تحريرهم من جبرية اقوى واعمق مدى وخطر مفعولا ، اعني الجبرية الباطنة التي تنخر النفوس والهضم بشتى الخرافات والاهوام والاحكام المتبخرة على وهج جمجم الواقع ؟ والقلّة القليلة من اولئك الملايين تدرك انه يجب ان تخوض معركة اضخم واثقل من معركة التحرر من الاجنبي . وهي معركة اسميها معركة الثقة ، نواميسها ادقّ

والطف واصعب من نواميس المعارك المادية . وهي اعزّ الشروط التي تشترط لتزكية العاطفة القومية في صدق اضطرامها في عموم مواطني الدول الجديدة . ولا غرابة : فاقباسها اقباس الخلق في انصع آياته . فاهباء الساطع المنشور في افراد الامم المتخلفة لم يكن الهباء الا لأن النفوس فقدت كل ثقة وفقدت كل طمأنينة بما قاسته من الولايات والحييات والانكسارات طيلة الدهور تحت سطو الفقر والجوع والعري والجور والذلة والمهانة . وليس يمكن ان تلتهب فتصبح نفوساً آدمية لها نبل اندفاعات النفوس الآدمية ، الا اذا ما ارجعت لها الثقة والطمأنينة والايمان بطهر المقاصد وزكاة المشاريع من وراء عظيم العزائم الجماعية .

وبعض زعماء الشعوب المتخلفة يعرفون جيد المعرفة ما وجب عليهم ان يدفعوه من باهظ الاثمان وما وجب عليهم ان يبذلوه من مرهق المجهودات وما وجب عليهم ان يتحملوه من مرّ التضحيات قبل ان يفوزوا بتلك الثقة الغالية وباطمئنان الجماهير اليهم ، فامكن لهم ان يقودوها في ضروب من الكفاح تبدو لا حظاً لها في النجاح نظراً الى انهم تجرأوا على اعزّ الدول الغربية سطوة وجبروتاً . ومع ذلك فبمثل ما فازوا به من الثقة المطلقة من قبل جماهير كان ينخرها الوسواس وسوس الشك ، امكن لهم ان يفتحوا سبل الامكان امام ما كان يبدو مستحيلاً .

وهنا تدرك الوزن الحقيقي الذي هو وزن العناصر الادبية . فهي هي التي ترجع للنفوس قوتها وصمودها وثباتها وتفانيها وصولتها واصل جبروتها ؛ وهو جبروت يوهن الحديد واليه تطلأ كل الرؤوس . أمن العجيب بعد هذا ان نؤكد ان تركية العاطفة القومية وترسيخ قدمها في النفوس وتوجيهها لتحمل اعباء شتى المسؤوليات والواجبات والتضحيات على اختلافها ، ليس يمكن ان يتم ما لم يُقم قادة الدول الجديدة الف دليل ودليلاً على انهم اهل لمثل تلك الثقة بما يظهرون من الحرص على الاستقامة والنزاهة وظهر المقاصد والغيرة على المصالح الاجتماعية لتوفير اسباب العدالة الاجتماعية ؟ وانه ليكفي ان يخامر الناس في ذلك ادنى شك في ظرف من الظروف او في لحظة من اللحظات لتنفجر انفجارات تحطم في ثوان مساعي عديد السنين . وليس من شك عندي في انه يمكن على ضوء هذه الاعتبارات ان تدرك حقيقة المعاني التي تلوح اليها الكتب المنزلة عندما تؤكد انه يكفي ان يوجد في أمة عشرة من « الرجال العادلين » لينقذوها مما تشكوه من صنوف الشرور

ويعتوها حية سالمة . وهو اصل اصيل مما سميت آنفاً « اصول ترميم النفوس » .

النقطة الخامسة : وتعلق بجنس الجو السياسي الذي يجب ان يكتنف الاقطار المتخلفة اثناء فترة اعادة بنائها وبناء حقيقتها المادية والاجتماعية والانسانية . هذا العنصر الاساسي تعرضت له مراراً فيا سبق ، خلال تلك الشروط المرهقة التي اشترطتها على القادة المسؤولين عن مصائر الدول الجديدة ، فكلفتهم بما كلفتهم به من ضروب الشعور الحساد العنيف بشتى المقتضيات التي هي مقتضياتها الحاضرة ومقتضيات بعث شعوبها قوية سالمة . وانما كان الامر كذلك نظراً لجنس الوظيفة التي هي وظيفتهم الحقيقية في ميدان السياسة : فهم بناء ضماير الافراد والجماعات قبل ان يكونوا بناء الهياكل المادية والاجتماعية ، او قل انه يستحيل عليهم ان يبنوا تلك الهياكل المادية الاجتماعية ان لم يستعينوا على ذلك ببناء الضماير الفردية والجماعية ، وبالعكس . هذا في عرف المنطق هو « الدور » . الا ان اعادة بناء الامم المتخلفة رهن فوزهم بكسر هذا الدور . والى جنب هذا الدورادوار اخرى عديدة . ولذلك اكدنا ان قضايا الاقطار المتخلفة ، وخاصة في ميدان تركية العاطفة القومية ، مشحونة بالتناقضات .

ولست في حاجة الى ان تكون فيلسوفاً سياسياً لتدرك ان تدريب العقول على مسؤوليات الحرية مما يقضي على المسؤولين ان يلازموا ضرباً مرهقاً من اليقظة والحزم والتفاني في سبل الاهداف النبيلة التي يسعون وراءها . فلا انت ترخص لهم في ان يذهلوا لحظة عن تلك الاهداف ، ولا انت ترخص لهم في ان يذهلوا عن خصائص العقول التي يجب عليهم تحوير اتجاهها جوهرى التحوير حتى تضحي قادرة على الاضطلاع بجسيم المهام في ميادين الخلق والانجاز .

ولئن كان تصريف الافعال المعتلة في العربية ادق من تصريف الافعال السالمة ، فكذلك في الميدان الانساني ؛ فان سياسة العقول المنحرفة اكدت بما لا يقاس من سياسة العقول السالمة . وقد انتبه لذلك الجاحظ في القديم حيناً لاحظ انه ليس اكد على ذوي العقول من سياسة العوام . اليس معنى ذلك ان زعماء السياسة في الاقطار المتخلفة يجب ان يعتبروا ان العدة العقلية الوحيدة التي يعول عليها انما هي عدة الضماير الحية القطنى البصيرة الخيرة ؟ هذه العدة هي النور الذي يجب ان يضيء كل اعمالهم وكل حركاتهم وكل اقوالهم ان كانوا يرغبون حقاً في بعث شعوبهم البعث المنشود . وليس يمكن ان يكون التوفيق الكامل نصيبهم ما لم يذكروا ان شأنهم بالضبط شأن المربي الاصيل مع الاجيال الفتية التي نريد

تربيتها ، نظراً الى ان مجتمعاتهم ليست في الحقيقة الا مدارس هائلة يجب تنظيم النشاط بها تنظيم نشاط العقول الراشدة سعياً وراء بلوغها الرشد .

والخطر ان الجسيان اللذان يجب اجتنابهما في هذا الصعيد ينحصران في اعتبارك ان القهر او الاكراه او الاستبداد من الامور الضرورية ، او في اعتبارك الانتصار للديمقراطية والعمل باساليبها ضرورة . فمهما تكن غيرتك على الديمقراطية وعلى مبادئها وعلى وسائلها وعلى اساليبها فلا بد لك من الاعتراف بان شروطها من اعز الشروط . وما دامت هذه الشروط غير متوفرة فالالتجاء الى المبادئ الديمقراطية ليس يمكن ان ينتهي الا الى الديماغوجيا والفوضى . وبدهي انه ليس بالقهر ولا في القوضى يمكن لك ان توفر الاسباب الكفيلة بالانتهاء الى هذه الغاية النبيلة : ان تستشعر النفوس عزة الحرية ! واذاً فلا بد لك من التسليم بان السياسة الوحيدة التي تضمن للاقطار المتخلفة القرار المنشود انما هي سياسة حازمة يقضى عادلة ، تحرص الحرص كله على مراعاة نوااميس تطور النفوس التطور الحسي السالم . ففي نطاق مثل هذا الجو السياسي - وفيه وحده - يمكن ان تركى العاطفة القومية على اكمل وجه .

النقطة السادسة والاخيرة: ان كنا بصدد استعراض الاصول العامة التي يجب الان نذهل عنها في شأن تركية العاطفة القومية ، فليس يمكن لنا ان نتناسى اصلاً اشد تواضعاً في الظاهر ولكنه لا يقل خطورة عن سائر الاصول : وهو اصل تربوي صرف . وينحصر هذا الاصل في ضرورة تغذية العاطفة القومية بنصوص ادبية او شعرية او تاريخية او فلسفية متخيرة منتقاة تدرّس في المدارس وتدرّج حسب درجات التعليم . ولا اريدها نصوص وعظ وارشاد ، وانما اريدها نصوصاً فنية جذابة تغري النفوس اغراء الوحي والايجاء في حياة الابطال وفي توضحياتهم المرة النبيلة وفي اضطلاعهم الجهم بجسيم الامور وعظيم العزائم كي يسعد غيرهم . ولا بأس ان تكون دروس التاريخ تشير الى العبر من الاحداث الحاسمة التي كانت منعرجات بناء الذات في آلامها وفي افراحها وفي مجدها وفي انكسارها . فمثل هذه الدروس اقوى من اي ضرب من ضروب الوعظ او الارشاد او الدعاية . وليس يخاف ان موروث الوعظ وموروث الارشاد وحديث الدعاية تنتهي دائماً الى عكس النتائج المطلوبة منها لما يحف بها من الضجر والسامة وشك الوسواس وظلمة العvisية .